الفصل السابع عشر
غريزة الهرب

إذا التقى القط بكلب فأعراض الفزع تبدو عليه : يقف شعره ، وتتقلص أعضاؤه ، ويتنفخ بطنه ، ويكشر عن أسنانه ، ويرتفع صوته. يفعل هذا فعلا غريزيا متى أحس من نفسه ضعفا أمام عدوه ، ليزعجه بهذا الانقلاب الغريب قبلما يتخذ إلى الفرار سبيلا. وترى السبع وهو سيد الحيوانات يركن إلى الحيل عند لقاء عدوه ، فيخش أو يتقهقر حتى يستجمع قوته ، ثم يتحيّن الفرص للافتراس.

إن الشجاع إذا فاجأه الخوف لا تفتر همته ولا تتزعزع عزيمته ، بل يتريث ليوازن بين قوته وقوة خصمه ، ويعالج الأمر لعله يجد مجالا للفوز ، وإلا التمس طريق الفرار صونا لحياته ولا عار عليه ، وينشط الجسم حينئذ نشاطا قلما خطر له ببال.

فقد حدّث أحد السائحين أنه رأى رجلًا فارًا من أسد يحاول افتراسه ، وفى أثناء فراره تسلق جدارا عاليا ، ولما زال الخطر عاد هذا الرجل إلى تسلق الجدار فشق عليه. وربما لا يحصل الهرب وإنما يقوم مقامه الاضطراب إذا اشتدت وطأة الخوف ، كالذهول الذى يحسه المستيقظ وقد شُبّت النار بمنزله . وربما برَق شعاع من نور يثير فيه النشاط إلى إخماد النار أو الفرار طلبا للمساعدة. وكالفزع الذى ابتأست به قلوب اليابانيين من الزلزال الذى نكبت به البلاد فى صيف عام ١٩٢٣ ، فقد كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، تكتظ أرجاؤها بالقصور الضخمة والشوارع المعبدة ، وأهلها مسوقون بالمطامع ، يدخرون الأموال لعمر ، وعيش سعيد ، وفى غضون خمس دقائق اندكت تلك الصروح ، وغارت فى

الأرض تلك الأبنية ، وغضبت الطبيعة فجرت من الويلات ما جرته تلك الحرب الضروس فى مدى الخمسة الأعوام.

مادت الأرض وانشقت طرقاتها فابتلعت الغادين والرائحين ، وخرّت المبانى على رؤوس الساكنين ، واندلعت ألسن النيران ، وهاجت أمواج البحر ، فهلع القوم من شر ما رأوا ، وانطلقوا على غير هدى يحاولون الخلاص ، وكلما خرجوا من خطر تلقاهم غيره ، ومن نجا من هذا وذاك بات عرضة للجوع والعطش والعرى .

هكذا ازدحمت عوامل الهلاك ، فأطارت لب العاقل ، وروعت قلب الشجاع ، وخرجت البلاد من هذا المصاب دامية الجروح مهيضة الجناح ، ولولا صدور مفعمة بالشجاعة وقلوب لم يتسرب إليها اليأس لباتت اليابان أثرا بعد عين.

رأى وليم جيمس أن الاضطراب من الفزع يحصل عقب الإحساس به ، ويحصل الخوف تبعا للاضطراب ، وانتقد قول بعضهم فلان ساءه حظه فحزن ثم بكى ، ورأى فلان عدوه فخافه ثم فر. لأنه يرجح تقدم البكاء على الحزن فى المثال الأول ، وتقدم الفرار على الخوف فى المثال الثانى ، واستدل على رجحان رأيه بالاضطراب الذى نحسُّه أولا متى بدأنا بالمسير فى طريق مظلمة ، ومتى باغتنا صوت مزعج ، ومتى رأينا صاحباً يتقلب على فراش الآلام.